● قصة لم تنشر للشهيرة غرام

حتى العيون الزجاج تبدي !

ناخذ مهمته دورها في ثلاث مراحل.. بدأ اولاها معي في السادسة صباحا او قبلها بقليل واكون ما ازال مشغولا بتعليق صحف الصباح على الحامل الخشبي ، باتيني وهو يقضم كعكة خشبت بالكثافة وحبات سكرها المعقود تسيل على ذقنه وبسال ما الاخبار .. واصر وانا امارس نكتة تبلدت منذ عشر سنوات ان اشير باصبعي الى العناوين الحمراء واقول اقرأ الا تعرف ان تقرأ ولكن ادفع الربع قبل ان تمس واحدة . فيضحك ويبدو بقايا الكعكة بين اسنانه الصفراء ... ويقول لو قرأت كلمة واحدة خارج العمود فخذ ما تشاء .

ان الامر حين يصبح عادة يكف عن ان يثير شيئا فلا انا اغضب مثلما كنت افعل قبل عشر سنوات ولا انا انتفز من منظره وقد اكتظ شدقاه ، بل اسحب دون ان اسخط كثيرا الصحيفتين اليوميتين الكبيرتين وافتحهما واشر باصبعي الى الوفيات واقول اقرأ دون ان تلمس شيئا بيدك الملوثة ، فلا يضيع لحظة فلما مقرطها وسجل اسماء الموتى لا يسقط منها الا اسماء العجائز .

الواقع انني لا احب ان تؤخذ عباراتي الاخيرة دون تفكير . وقد استغرقني الامر شهورا قبل ان يخطر لي ان اساله كيف تستطيع ان تقرأ اسماء العجائز فيضحك ضحكته اللزجة ويقول : « ولو يا استاذ .. كل متعمة واجباتها الدينية عجوز بالضرورة .. والناس لا يدفعون شيئا في مراثي العجائز فما لي ولهن ...» واذا كانت سطور متوجه بصوره جحظت عيناه وهو يتاملها ثم تعود ابتسامته اللزجة تتمدد على وجهه ويقول « شباب شباب .. القصيدة الدالية ظلت مطوية شهرا » .

« هذه صورة تعود على بعشرين ليره على الاقل ، عشرين او خمسين اذا نجحت في ان ابكي .. هل تعتقد ان الاسم يركب يا استاذ ، لا باس امر نفكر فيه فيما بعد فاتح هذه الصحيفة الثانيه » ، وافتحها وبنقل ، ثم يضع ورقه في جيبه ويقول : « والان نمضي لنسال عن العناوين ونراجع القصائد اربع قصائد واحده منها نصلح لاتنين .. وعلينا ان ندبر شيئا لهذا الكهل ذي الاسم العويص ، اما الرابع فلدي قصيدة مفصله على اسمه نعيصلا » .

وننصرف عني وهنا تبدأ المرحلة الثانية وهي عليه اشق المراحل وقد يضطر ان يطوف اربعه اطراف المدينه موقفا امام كل ورقه مجلله بالسواد ملصقه على جدار او عمود ليقرأ عنوان اسم الميت مفصلا ، فاذا كانت الورقه قديمة انتزعها فلا تشغل نفسه بفحصها في اليوم التالي ...

وكان يرى ان هذه عمليه جديرة بان يكافا عليها من البلدة فماذا نكون عليه الجدران لو تراكمت الورقه على الاخرى ... واذ اقول « تنزعها عن الحائط للقيها على الارض » قال : « استغفر الله ، لاسماء الموتى حرمة عندي اجمعها كومة لالقي بها الى اقرب صندوق حرام يا استاذ ، لقد اصابنا خير من اكثرهم ... اليس في وجهنا بقيه من ماء .. » وانطلع الى وجهه استفرغ ابن يمكن ان نكون هذه البقيه فتضيع بقربي بين الخطوط التي تكاد تغير اذا ضحك او بكى ... وقد يبست في ثناياها شعرات بيضاء لا تحعها نعاما .. فاللحيه المحفوفه لست فياقه محزون .. وقبعت تحت طربوش منكسر انزعت اكثر خيوط شرابه . ولكن له مهمه ليست لكل الطرابيش ، فتحه نعاما ، وعلى أديم الصلعه المقعده بالعرق ، كان يضع المرثاة المقصوده فلا نخطئها اصابعه بين اربع او خمس عرفها خمسه ان نخلط بين اسم واسم .. « مره غلطنا » (حكى لي وانا احاول ان الطف الكلمات من ثنايا ضحكته اللاهثه) « قرئينا امراه بقصيده رجل ... غلطه لا اغفرها لنفسي ، كلفتني طردا من منزل المرحومه وخسارتي لجزاء اتوقعه ،

وعشره قروش بالنرام ذهابا وايابا ، عدا صعودي سلما من تسعين درجه . لم ينلني من ذويها الا سيجاره بالفرا سقطت من يدي وانا اسحب نفسي من قبضة الرفيع الذي دفعني ، ان اكل الخبز بكلف الكثير » فاقول شامتا « تساهل وقد اخبرته من أحط سبيل » فيزم ما بين عينيه ، واشعر ان غمه اسى تبرق خطفا في عينيه الباهتتين ويعول « كل يسر لما خلق له » .

اذا كان ما زال يقوف فهو حتما امام مسجد او كنيسه ، فمن حجم الاستعدادات يعرف حجم الميت اجتماعيا ويدرك بفراسة عجيبة ما يمكن ان ينظره ، ثم اعود ، وقد غدت شمس النهار سليطه ، فاراه يجلس على درج عتيق مظلل فينبش من جيوب بدلته السوداء الظهره اوراقا كثره ويحمل قلمه المقرطس يشطب اسماء ويكتب ، اسم يحل مكان اسم اخر ، مرتى من كل الاشكال والاعمار والملل ، اختصرت متاهيهم في اربعه ابيات او خمسه لا يستقيم واحدها الا اذا كان مسروقا ، وما هم ان الحراس لا يفهمون ، هكذا يقول فرؤوسهم بعد يوم مضطرب بالانفعالات تتعطل نعاما .

والواقع انني مستطع من مكاني ان اعرف كيف يتحرك نعاما في مجالس العزاء دون ان اعرف حاجة الى رؤيه اكثر من اربع مرات او خمس ولعله المثل الوحيد الذي ظل يلعب دورا واحدا طول حياته ، وفي اكثر من عرض للبدلة الواحدة ندخل ، فالبيوت في هذه المناسبات لا ابواب لها ، وطريقه نحسن استدعاءها بسرعة ناظ شفه السفلى ترتجف ويبدو ان كل شيء فيه يسأول حركه الارتجاف هذه ، كعاه وساقاه ، تطالبه المهندل وزر طربوشه المزلق الى منتصف جبهته ، وسليب دقائق دون ان يسكن فيه هذا الاهتزاز وبكون العرق قد انعقد حبات كبيرة فيما تحت الطربوش فيتزعه ويتناول منه ورقه ويتقدم الى حيث يجلس اصحاب البيت ويروح يقرأ بصوت مسموع لا نبرة فيه الا حين يلفظ الاسم ، فالمرثيه خاصه خاصه جدا فاذا نبا الاسم عن تفصيلاتها فهذا ليس شانه ابدا ولكنه يعرف كيف نزح به ونتهي فيمسح عن جبهته العرق ويتقدم لمخطونين احدا بيديه الاثنتين بد اكثر الاشخاص علاقه بالفقيد ، وهنا نكون بضع ورقات قد دست في يده فيفيها بتراشقه يحمل نفسه بعدها

« تاريخ فلسطين الحديث » كتاب عن الماضي الحي

تشكل دراسة التاريخ اساس هاما من اسس كشف قوانين الثورة ، وقواعد الصراع في المجتمعات البشرية ، بحيث تصبح عاملا هاما في عملية التكوين الثوري الفعال . ولا شك بان كتاب الدكتور عبد الوهاب الكيالي « تاريخ فلسطين الحديث » يعتبر دراسة علمية موضوعية ذات اهمية فائقة ، لتاريخ القضية الفلسطينية والنضال الفلسطيني ضد الصهيونية والاستعمار ، منذ بروز الحركة الصهيونية في اواخر القرن التاسع عشر .

فالكتاب حصيلة خمس سنوات من الجهد العلمي الحديث ، اطلع المؤلف خلالها على المصادر الاولية الاساسية للتاريخ الفلسطيني الحديث. فقد اطلع المؤلف على مجموعه وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية وجمعها في كتاب هام صدر عام ١٩٦٨ عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، كما اطلع على وثائق مصوره من الارشيف الصهيوني ، وكان اول من اطلع على وثائق الارشيف البريطاني سنة ١٩١٤ - ١٩٢٩ وذلك فور فتح هذا الارشيف عام ١٩٦٨ اثناء اقامته في لندن بقصد دراسة تاريخ القضية الفلسطينية.

ان كتاب تاريخ فلسطين الحديث هو اول كتاب علمي جاد يلم بالصورة الشاملة للقضية من خلال وضعها في اطارها الصحيح : التآمر الامبريالي و « تشجيع اسيطين اليهود لفلسطين بفكرة اقامة حاجز بشري استعماري غريب ، يحول دون قيام دولة عربية مستقلة موحدة تضم المشرق العربي وافريقيا العربية وذلك حفاظا على استمرار السيطرة الاجنبية على مقدرات الوطن العربي » (ص ٢٨) .

وعلى الرغم من الم الكتاب بجميع جوانب القضية الفلسطينية نشوء الحركة الصهيونية، المطامع البريطانية ، التفاعلات مع الاوضاع العربية ، فان اهم ما طالعنا به الدكتور الكيالي في كتابه هو تتبعه الواعي الدقيق لمراحل النضال الفلسطيني ضد الصهيونية والاستعمار والمركز الاجتماعي والطبقي داخل الحركة الوطنية الفلسطينية .

ولقد اضاف كتاب « تاريخ فلسطين الحديث » الكثير من الحقائق التاريخيه التي تدحض نهائيا وشكل علمي موثق الحجج الصهيونية والضبابية المغرضة التي نشرها البعض حول موقف الجماهير العربية الفلسطينية من المخطط الامبريالي الصهيوني في فلسطين . ونشير على سبيل المثال ما اورده الدكتور الكيالي من حقائق « جمعية الفدائية » التي كانت تعمل عام ١٩١٩ لاشعال نار الكفاح المسلح في فلسطين ضد الصهيونية والانتداب وما جاء حول اعمال عصابة الكف الاخضر ١٩٢٩ - ١٩٣٠ رائدة اول حرب عصابات في فلسطين ضد المستعمرات الصهيونية والقوات البريطانية . كذلك فان في الفصل المتعلق بثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ الكثير من المعلومات والتحليات المستندة الى وثائق وزارة المستعمرات ووزارة الحربية البريطانية كما يضيف بالتفصيل تشكيلات الثوار واساليبهم اثناء اعظم ثورة عربية في الفترة الواقعه ما بين الحربين .

وبدون الدخول في تفاصيل التحليلات التي يوردها الكتاب حول التمركز الطبقي والاجتماعي داخل الحركة الوطنية فان هذا التحليل يصح ان ينظر اليه كدليل لفهم تباين المواقف الطبقية ابان مرحلة التحرر الوطني . وهو يحدد مواقف الطبقات المختلفة من قضايا النضال الوطني على ضوء تقسيمها الى ثلاث فئات . الفئة الاولى هي طبقة الاقطاعيين وكبار الملاك وكبار التجار وقد شكلت هذه الطبقات الاطار الاجتماعي لمختلف النماذج المتخاذلة والمهادنة والمتعاونة مع الاستعمار . والفئة الثانية هي فئة الطبقات الوسطى والبورجوازية الوطنية الصغيرة في المدن ومراكز الارياف وهي فئة متجاوبة مع الحركة الوطنية ومتضررة الى حد بعيد من الصهيونية ودعم الانتداب البريطاني للصهيونيين . وقد لعبت هذه الفئة دورا تحريكيا واعلاميا منظورا كما شاركت في الاحتجاجات والمظاهرات واضراب المدن ومساندة الثورة الا انها تخلف عن خوض النضال المسلح بشكل عام . اما الفئة الثالثة فهي فئة الفلاحين في الارياف والعمال العاطلين عن العمل، الذين هم في الواقع من جذور فلاحية او من الفلاحين الذين طردتهم الصهيونية من اراضيهم، وهي الفئة الاكثر تضررا بالغزوة الصهيونية والتي عبرت عن معارضتها للصهيونية والسياسة البريطانية بالانتفاضات والثورات المسلحة .

ان تتبع مراحل النضال الذي خاضه الشعب الفلسطيني تثبت بان تاريخ فلسطين هو تاريخ حافز وليس تاريخ عبء وان هذا الشعب كان يخوض نضاله بالرغم من المؤامرات الخارجية متمثلة بالخطر الصهيوني والتخطيط للاستعمار الاستيطاني وبالتحالف الامبريالي البريطاني - الصهيوني ، لاقامة وطن قومي لليهود ، في فلسطين والمؤامرات الداخلية المتمثلة بالعالج الطبقية للزعامات الرجعية الدينية والاقطاعية التي تلتقي مصالحها بشكل او بآخر مع الاستعمار وبالتالي مع الصهيونية ، والترويج لقبول الحلول الانهزامية . وفي الصف الاخر تقف الحركة الوطنية التي برغم تمزقها وتغرقها استطاعت ان تقف في وجه هذه التحديات المذهلة الحجم وان تفجر الثورات المسلحة والاحتجاجات والحملات الواسعة ضد العدوين الخارجي والداخلي.

وهكذا نرى ان للكتاب قيمة فكرية بالاضافة الى قيمته التاريخية ، وهو يحدثنا في الواقع عن ماضينا الحي اي واقعنا الحالي وهذا ما يكسبه اهمية مضاعفة .

(...)

مقاطع اخرى عن عودة المعول

● شعر : رشدي العامل ●

نحن نبيع الموت للموتى
نحن نبيع الصمت للاحياء
ندفن في غربتنا الصوتا
نحن بلا ظل ولا اسماء
نحن هنا .. اشياء
من يشتري من منجم البكاء
ملحا ، ومن يذروه في الأرض
لتزهر الحقول بالبغض
وتورق السماء
يوما فتعطي الاوجه الاسماء

« الحلم »

سمعت الريح، من واد الى واد ، تناديني
يريد سريرها المرتج، لو يسطيع يأويني
تريد الريح لو يوما تفاهمني
وتمنح اذرع الكسلى
عبير الدفء والليمون والحلوى
وتتركني على ارض العراق اعانق النخلا
انام على سرير الماء والصبّار والدفلى
تريد الريح في وطني ،
ولو همسا ، تناديني

« في الذكرى »

حطب في باحة السجن، وشباك مضاء
وبقايا لطخة سوداء، كانت في شتاء مرّ ،
كانت في شتاء

زهرة حمراء ، يسقي لونها غصن دماء
حطب في باحة السجن، وفي الخارج ماء
وبقايا لطخة سوداء، قد دثرها ذات مساء
رجل يعبر في الباحة ،
يسترخي على صبح النساء

« رسائل الى المنفى »
« الى ب »

بين صمت الوجوه المريبة
رأيت الاله يخض الحليب لاطفاله ،
كيف تمضي الحياة

وكيف يعيش الاله
عبركم أيها الميتون
في عيون غريبة ..

« الى س »

وتمشون في الدرب ،
هذا يدب، وذاك يغازل زندا ،
وذاك يواري الحقيبة
ويخدع حتى العيون المريبة

« الى ج »

بين صمت الوجوه المريبة
تختفي والعيون الغريبة
لا تهز الظلال
في الليالي الطوال
في مرايا النفوس السليبة

« نشيد الموتى »
« العبي »

حلم مر ، بعيد الجرس ، مخضل النداء

يطلب الاموات، من شباكه المقفل، ماء
الخطى مرت على الارض، ونامت في العراء
لم تزل منها دماء
نزها الشارع، فابتلت عيون الانبياء

« العبية »

لا تهزي الجذع، فالنخلة لن تمنح للموتى ثمارا
انها لا تمنح العذق ، ولا السعف،
سوى صمت العذارى
يستبيح السوط من افخاذهن السمر
لذّات جبارى
لا تهزي الجذع يا مريم، ان الدمع غارا
في دم الآباء.. والعار باحشاء العذارى .

« الرجل »

واذا شئنا نبيع الصمت، نرضي كالياتامى
ايماءات يعزيّنا ، اذا الميت نامى
مطبق العينين ، تحت الكفن الابيض ،
وانفض المعزون ،
واغفينا على صوت الندامى

« الشيخ »

لم يزل في المسجد المعتم ،
يجتر التسابيح على ضوء المآذن
راعش الجبهة ، مهزوما مهادن
صوته ، في اخر الليل ، اذا الحارس
اغفى ، يتعالى
« كلنا جوعى ، وفي اعيننا العالم
يخبو والمدافن

يستفيق الموت فيها
وعذارنا حبالى
ذاك ما وزعه الله تعالى
فعلى ارضك يا رب ،
سلام الارض من جرح بنيها .. »

شتاء ١٩٦٥ ـ بغداد